فى عيـــــد المعرى

للدكتور عبد الوهاب عزام

هذا قطار فلسطين ، يحمل ذكرى البلاد التى نحبها ، ويُبيّتم بنا مهوى أفئدتنا ، ومثار أشواقنا من بلدان وجماعات طالما حننّا إليها ، وسعدنا برؤيتها ، وردّدنا الفكر بين ماضيها وحاضرها ، ووجّهتنا العزائم والآمال إلى مستقبلها . وإن حزّ فى نفوسنا الألم لها فإنه الألم الذى يحفز الهمم ، ويُعطى العزائم ، ويُعدّ العُدد ، ويجمع الكلمة ، ويؤلف القلوب ، ويؤكد الآمال

وهذه قناة السويس تسيل مع مائها العبر ، ويجرى التاريخ ، ويزخر الحاضر بما عبرها من الجنود والخطوب . وليس هنا مجال الحديث عنها . ليس بها من جديد إلا جسر من حديد جمع عِبريها ليعبر القطار بركابه لا ينتقلون من قطار إلى آخر ، ولا يشق عليهم العبور بأمتعتهم ليلاً على مُمدّيات القناة . ووقف القطار على القنطرة الشرقية وقفته لجوازات السفر وما يتصل بها . ثم سار حين كاد ينتصف الليل فضرب فى بيدائه ، وعبرناها مضطجعين ، تجيش بنا هموم لا تنام ولا تُنيم . ولاحت فلسطين مع الضحى ، والعين تتقرّى ما يسر وما يسوء ، والفكر يضرب فى الماضى والحاضر ، ثم يرى مستقبلاً تكفله القلوب المجتمعة والعزائم الموحدة

وبلغ القطار حيفا ظهراً متأخراً عن موعده ساعتين أو ثلاثاً . ولم نتلبث بها إلا ريثما أعددنا لاستئناف السفر . وهذه سيارتنا تغور وتنجد ، وتتوغّل الجبال وتنحدر على السفوح ، وتقطع الأودية ، وتقف عند حدود لم يخلقها الله ، ولم يعرفها التاريخ ، ولم يقرّها الحق ولم تقبلها الأوطان ولا أهل الأوطان ... فلنطو المسافات ، ولنقتحم العقبات ، مسرعين إلى دمشق الجميلة الجليلة

أدركنا الليل ونحن نُنفذ السير على مقربة من دار الأمويين فطمحت الأبصار ، وهفت القلوب ، وغشى الأنفس ما غشيها من جلال الذكر ، ومن الاغتباط والابتهاج بالعود إلى المدينة التى ما دخلتها ولا خرجت منها ولا غبت عنها إلا محبّاً لها مشتاقاً إليها معجباً بها مفكراً فيها آملاً لها كل خير ، داعياً لها بما هى أهله من الأمن والرخاء والمجد والعظمة . المدينة التى ما دخلتها ولا أقمت بها إلا منشرح الصدر ، قرير العين ، على رغم الخطوب والكروب ، والتى قلت فيها وقد عاودت الشعر بعد طول العهد ، من أجلها :

أحيت دمشقُ رميم الشعر فى خَلَدى
لا غرو أن نبعث الأشعارَ أشعار

أقصر أيها القلم فإني متهم بالعصبية لدمشق ، والمغالاة فيها .

وما حملتك بنانى الآن لتكتب عن دمشق ، ولكن عن عيد أبى العلاء المعرى

بلغنا دمشق بعد الغروب بساعة ونزلنا عند فندق أميّة . وقد تعودت أن أنزل به وذكرته فى بعض رحلاتى ، فلم نجد به مكاناً فنزلنا بفندق دمشق — وكنا نزلنا به فى بعض أسفارنا مع طلاب الجامعة المصرية ونزل رفقاء لنا فى غيره . ففخر فريقنا عليهم بأن تسمّوا بالدمشقيين

ولم يستقر بنا المقام فى الفندق حتى جاء بعض إخواننا المشرفين على مهرجان أبى العلاء ، فرأينا وجوهاً معروفة محبّبة إلينا . ولا أذكر أسماء خوفاً من التطويل إن ذكرتها كلها والعتاب إن ذكرت بعضها . وأصبحنا فى دمشق يوم الجمعة خامس شوال سنة ١٣٦٣ ! وقد بقى للمهرجان ثلاثة أيام ، واجتمعنا هذا اليوم نحن وجماعة من علماء الشام وأدبائها أعضاء المجمع العلمى العربى فى دار المجمع ، وهى المدرسة الأشرفية التى بناها الملك الأشرف الأيوبى .

وكان العمل يُسرع فى صحنها لتشارك فى حفلات أبى العلاء ، ولكن وافى المهرجان ولمّا يفرغ منها الترميم . وجلسنا مع رئيس المجمع وبعض أعضائه حيناً . وقدم إلينا من مطبوعات المجمع :

كتاب التبصر بالتجارة لأبي عثمان الجاحظ . صححه وعلق عليه السيد حسن حسني عبد الوهاب التونسي

تكملة إصلاح ما تغلط فيه العامة لأبي منصور الجواليقي . صححه وعلق عليه الأستاذ عز الدين التنوخي

ديوان الوليد بن يزيد جمعه المستشرق الإيطالي جيريالي وكتب مقدمته الأستاذ خليل مردم بك

بحر العوام فيما أصاب فيه العوام لمحمد بن ابراهيم المعروف بابن الحنبلي نشره الأستاذ عز الدين التنوخي

الجزء الثامن من جامع التواريخ للتنوخي

وعدنا إلى دار المجمع مرة أخرى بعد أيام ، فزرت ضريح الملك الأشرف ، وقد اتخذت حجرة الضريح خزانة كتب . ثم خرجنا إلى البناء المقابل وهو المدرسة الظاهرية التي بناها الملك الظاهر بيبرس، وزرنا القبة التي فيها قبره، ورأينا بدائع النقش والفسيفساء فيها . وقد جعلت هي وحجرة متصلة بها خزانتان لبعض كتب المكتبة الظاهرية . ورأينا حول قبر الظاهر طائفة من الكتب المكتوبة بأيدي علماء معروفين فرأينا سلسلة من خطوط كبار علمائنا في عصور متطاولة . منها :

مسائل أحمد بن حنبل بخط الذهبي

كتاب بخط سبط ابن الجوزي

إنباء الغمر لابن حجة بخطه

كتاب بخط ابن تيمية

كتاب بخط ابن الفوطي

كتاب بخط ابن عبد الهادي

كتاب بخط ابن عساكر

كتاب بخط المزي

كما رأينا كتبا أخرى قديمة نفيسة

وأمضينا سحابة يوم السبت في الربوة دعانا إليها اثنان من كرام تلاميذنا : الدكتور أسعد طلس والأستاذ شكري فيصل ، فاجتمع هناك الأساتذة طه الراوي ممثل العراق في مهرجان المعري ، والأساتذة أحمد أمين ، وعبد الحميد العبادي ، وأحمد الشايب ممثلو جامعة فؤاد ، وجامعة فاروق ، والمجمع اللغوي

والربوة مكان جميل تره يحار فيه الطرف والفكر بين ماء يسقط من قمة الجبل حيث يجري نهر يزيد وماء يجري على السفح ، وآخر في بطن الوادي وآخر في العدوة الأخرى وآخر فوقه . هناك تجري شُعَب سبع من هذا النهر المبارك العجيب نهر بردى ، في القمم والسفوح وبطن الوادي وأصلها واحد

والماء هناك تتجلى به الحياة قوة وبهجة وزينة ولعباً ، يسقط من السماء على السفح شلالاً ، ويجري على السفوح وفي الوادي أنهاراً ، ويستتر تحت الشجر والعشب ، يومض بينها أحياناً ويختفي ، ويفجؤك منبجسا من صخر أو ساعداً من نافورة ، أو سائلاً من جدار ، وتسمع خريره أحياناً ووسوسته حيث لا تراه . فما تزال بين الفكر والنظر والسرور والتعجب والمرح والوجوم . ولا تدعك هذه المرائي الجميلة العجيبة تفلت من بهجتها إلى التفكير فيما يحزنك من هموم العيش ، ولا يخليك الجمال والجلال من نظر ساذج ، وخيال حائر ، ووجوم سار ولذة يشوبها حزن . ولا يمكنك هذا الجريان الذي هو أشبه بالزمان أن تحس مضي الوقت . ولا ينبهك طول الزمن من التمادي مع هذا الجريان . وما أحسبني جلست على هذه الربوة فقدرت الجلوس بالطول والقصر ، والساعات والدقائق ، ولكنها أفكار متوالية ، ونظرات متمادية ، وصور متتابعة ، لا يدري الإنسان بينها أهو في فراغ أم في شغل ، وفي تفكير أم في غفلة ، وفي جد أم في لهو ، حتى يدعوه صحبه إلى الكلام أو القيام فيتكلم مشغولاً بها ، ويقوم ومل عينيه التلفت إليها ، ومل جوانحه الحنين إلى معاودتها ...

(للكلام صلة)

عبد الوهاب عزام

عدد الرسالة الممتاز

يصدر عدد الرسالة السنوي الممتاز في اليوم الثامن من يناير سنة ١٩٤٥ مدبجاً بأقلام أقطاب البيان في مصر والعالم العربي